ـ ١ ـ

قلت وأنا أتفحصه بأهتمام ومودة :

ـ أنى أتذكرك جيدا .

انحنى قليلاً فوق مكتبى وأحد بصره الغائم . وضح لى من القرب ضعف بصره ، نظرته المتسولة ، ومحاولته المرهقة لألتقاط المنظور ، وقال بصوت خشن عالى النبرة يتجاهل قصر المسافة بين وجهينا وصغر حجم الحجرة الغارقة فى الهدوء :

ـ حقا !؟ . . لم تعد ذاكرتى أهلا للثقة ، ثم أن بصرى ضعيف . .

ـ ولكن أيام خان جعفر لا يمكن أن تنسى . .

ـ مرحبا ، أذن فأنت من أهل ذلك الحى !

ـ لم نكن من جيل واحد ولكت ثمة أشياء لا تنسى .

فجلس وهو يقول :

ـ ولكنى أعقتد أننى تغيرت تغيرا كليا وأن الزمن وضع على وجهى قناعا قبيحا من صنعه هو لا من صنع والدى !

وقدم نفسه بفخار دون حاجة إلى ذلك قائلا :

ـ الراوى ، جعفر الرواى ، جعفر إبراهيم سيد الرواى . . لم

تخف عن أسباب اعتزازه بالاسم. وأكد ذلك التناقض الحاد بين منظره التعيس وبين لهجته المتعالية قال:

ـ إنك تعود بى إلى ذكريات عزيزة، أحياء خان جعفر والحسين المقدسة، أيام الهناء والتجربة. .

ـ وكانت ثمة وقائع مثيرة وحكايات غريبة. . فضحك عاليا. اهتز جسده الطويل النحيل حتى أشفقت على بدلته الرثة التى تتمزق، ورفع لى وجهه ذا الجلد المدبوغ والشعر النابت وهو يهرش شعر رأسه الأبيض المتلبد، وقال:

ـ نحن أهل، ومن حقى أن أستبشر خيرا لقضيتى العادلة!

فسألته مؤجلا الخصام:

ـ تشرب قهوة؟

فقال بلا أدنى تردد وبجراءة:

ـ لنبدأ بسندوتش فول ثم تجئ القهوة بعد ذلك. . وراقبته وهو يأكل بنهم جائع حتى ساورانى الأسى، واستقرت رائحته فى أنفى خليطا من العرق والتبغ والتراب. ولما أكل وشرب اعتدل فى جلسته وقال:

ـ أشكرك، لا أريد أن أضيع وقتك أكثر من ذلك، لا شك أنك اطلعت على طلبى على بحكم وظيفتك، فما رأيك؟ فقلت بأسف:

ـ لا فائدة، نظام الوقف لا يسمح بشىء من ذلك. .

ـ ولكن الحق واضح مثل الشمس .

ـ الوقف واضح أيضا . .

ـ كان القانون ضمن ثقافتى ولكن أعتقد أن كل شىء يتغير . .
فهدر صوته الخشن صائحا :

ـ لن يضيع حقى أبدا ، ولتعلم ذلك وزارة الأوقاف .

ولما وجد منى هدوء باسما تراجع إلى الهدوء وقال :

ـ دعنى أقابل المدير العام .

فقلت بلطف :

ـ المسألة واضحة جدا ، فوقف الرواى أكبر وقف خيرى فى الوزارة ، ريعه موقوف على الحرمين الشريفين ومسجد الأمام الحسين وبالأضافة إلى جمعيات خيرية ومدارس وتكايا وأسبلة ، والوقف الخيرى لا يمكن أن يئول إلى شخص بحال من الأحوال .
قاطعنى بحدة :

ـ ولكننى حفيد الرواى ، وريثة الوحيد ، وأنى فى مسيس الحاجة إلى مليم على حين أن الإمام الحسين غنى بجنات النعيم .

ـ ولكنه الوقف !

ـ سأقيم دعوى .

ـ لا فائدة من ذلك .

ـ سأستشير محاميا شرعيا ، ولكن تلزمنى أستشارة مجانية لأن النقود كائنات مجهولة فى عالمى . .

ـ لى أكثر من صديق بين المحامين الشرعيين، وممكن أن أدبر لقاء بينك وبين أحدهم، ولكن لا تضيع وقتك جريا وراء أمل لا يمكن أن يتحقق.

ـ إنك تعاملنى كطفل!

ـ معاذ الله ولكننى أذكرك بحقيقة لا جدال فيها:

ـ ولكننى حفيد الرواى أصبحت وقفا خيريا . .

ـ وهل من العدل أن أترك أنا للتسول . . ؟

ـ المتفق عليه فى الإدارة وهو المتبع فى مثل ظرفك أن تقدم طلبا بالتماس صرف إعانة شهرية من الخيرات بشرط أن تثبت نسبك . .

جعل يردد: إعانة شهرية! . . يالهم من مجانين ظالمين.

واصل قائلا:

ـ صاحب الوقف يلتمس إحسانا! . . هذا جنون . . وما مقدار الإعانة؟

صمت لحظات مترددا ثم قلت:

ـ قد تصل إلى خمسة جنيهات . . وقد تزيد . . قهقه ساخرا كاشفا عن أسنان مثرمه سوداء، ثم قال:

ـ صدقنى، سأكافح، لقد حملت حياة لا يقدم على حملها الجن، فلتكن معركة، لن أكف عن القتال حتى أنال حقى الكامل من تركه جدى اللعين!

فلم أتمالك من الابتسام وقلت :

ـ ليرحمه الله جزاء ما قدم للخير .

فضرب حافة مكتبى بقبضه المعروقة وقال :

ـ لا خير فيمن ينسى حفيده الوحيد . .

ـ ولماذا نسيك؟

قبض على ذقنه دون أن يجيب . شعرت بأن الزوبعة ستنقشع عاجلا أو آجلا ، وأن التماس الإعانة سيكتب . ما أكثر المتسولين عندنا من حفدة الباشوات والأمراء والملوك . ويقينى أنه لا يجحد أحد ذريته بلا سبب فماذا فعلت يا جعفر؟! .

ومد بصره الضعيف إلى لا شىء وراح يقول :

ـ وقف خيرى ، حرمان من الميراث ، هكذا فعله دائما مزيج من الخير والشر ، ها هو يمارس سلطته ميتا كما مارسها حيا ، وها أنا أكافح فى موته كما كافحت فى حياتة ، ، وحتى الموت . .

ـ ٢ ـ

توثقت العلاقة بينى وبين جعفر الراوى . كان فى وحدته على استعداد حاد للالتصاق بمن يشجعه ولو بابتسامة ، وكان يشجعنى على المغامرة شعورى بأنها عابرة سريعة الزوال ، فشخصيتة المضطربة لا توحى بالاستقرار والدوام ، وارضاؤها يسير هين . ثمة أشياء ظاهرة وباطنة جذبتنى إليه . هناك على سبيل المثال

الذكريات القديمةوافتتانى ببيت الرواى وحكاياته، وما تردد يوما عن مغامرة جعفر وجنونه. وهناك أيضا ميلى إليه رغم فظاعة منظره ورثائى له فى خاتمته التعيسة. وكان ذا قامة مديدة، ولولا البؤس ـ وربما الأمراض؟ ـ لنضحت شيوخته بروعة وجلال.

سألته بعد تناولنا عشاءنا من الكوارع فى شارع محمد على:

ـ كيف تعيش يا جعفر؟

ـ أتخبط فى الشوارع نهارا وحتى منتصف الليل..

ـ وأين تسكن؟

ـ أبيت فى الخرابة..

ـ الخرابة؟!

ـ هى ملكى بوضع اليد، وهى ما تبقت من بيت جدى القديم!

وكنت قد انقطعت عن الحى العتيق منذ عهد بعيد فلم أعرف أن البيت تحول إلى خرابة.

ـ أليس لك أهل؟

ـ لعلهم يملئون الأرض..

ابتسمت. فقال جادا:

ـ لى أبناء قضاة وأبناء مجرمون..

ـ أتعنى ما تقول؟

ـ رغم ذلك فأنى وحيد . .

ـ يا لها من طريقة فى الحديث . . !

ـ أسـمع ، رد إلى الوقف أعـدك بأن ترانى مـحـاطا بالأبناء والأحفاد ، وألا فستجدنى دائما وحيدا طريدا . .

ـ أراك تحل الألغاز . .

فضحك قائلا :

ـ أنى أحب اللقمة الحلوة والوقف ، كما أحب لعن الواقفين . .

ـ أليس لك مورد رزق من أى نوع فى شيخوختك؟

ـ لى أصدقاء قدماء ، أعترض أحدهم فيمد يده بالسلام ويدس فى يدى مـا يجـود يه ، أننى أتمرغ فى التـراب ولكننى هابط فى الأصل من السماء .

قلت بأسى :

ـ حياة غير لا ئقة ، اكتب الالتماس فورا . .

ـ هى الحياة الإنسانية الأصيلة ، جربها بشجاعة أن استطعت ، اقتحم الأبواب بجرأة ، لا تتمسكن فكل ما تحتاجة هو حق لك ، هذه الدنيـا ملك للإنسـان ، لكل إنسـان ، عليك أن تتـخلى عن عاداتك السخيفة ، هذا كل ما هنالك .

ـ ومع ذلك فإنك تتمنى أن تسترد تركة جدك؟

فقهقه قائلا :

ـ لا تحاسبنى على التناقض، أنى حزمة من المتناقضات، ولا تنسى أننى عجوز، ولا تنسى أننى أخوض معركة مع جدى منذ قديم.

ـ أود أن أعرف لماذ حرمك ميراثك؟

ـ هذه هى المعركة، لا تتعجل، لست بسيطا كما يتراءى لك، كثيرون ينخدعون فى، حتى الصبية يجرون ورائى وأنا أتخبط فى الشوارع، ماذا يظنون؟، إنى أحب الكلام، ولما كنت وحيدا فإنى أكلم نفسى، ماذا يظنون؟، لقد تقدم بى العمر ولما تكف الأسئلة عن مطاردتى، صدقنى فإننى شخص غير عادى، حتى فى الجبل كنت غير عادى، ولا فى القصر ولا فى الخرابة، ورغم التصعلك والتسول فأننى أقف أمام الحياة مرفوع الرأس متحديا، إذ أن الحياة لا تحترم إلا من يستيهن بها . .

جعلت أتاملة باسما وهو يتحدى الوجود ببدلته المتهتكة وجلده المدبوغ، ثم تمتمت:

ـ عفارم عليك!

ـ وليس الإنسان وحده من تعاملت معه فلى صلات عريقة مع الجماد رالجن والعفاريت فضلا عن عناصر الحضارة الجوهرية.

ثم غير نغمته فجأة وسألنى:

ـ هل وقع اختيار على محامى ثقة لنذهب إليه؟

فقلت متوسلا:

ـ انس بالله هذه القضية الوهمية يا جعفر .

ـ ألست جعفر إبراهيم حفيد سيد الراوى؟

ـ بلى . . ولكت لا توجد قضية على الأطلاق . . فصاح :

ـ إذن سأشعل ثورة تقلب نظام الكون . .

ـ هذا أقرب إلى الإمكان من كسب القضية ، اكتب الالتماس ولا تبدد الوقت . .

فقال ضاحكا :

ـ إنكم فى الوزارة تعيشون من فتات أوقافنا ثم تمدون أيدكم إلينا بالإحسان . .

ـ اكتب الالتماس ولا تبدد الوقت . . وغشانا الصمت دقائق ثم قال وكأنما يحادث نفسه :

ـ خمسة جنيهات! . .

ـ يجب أن تستأجر ولو حجرة فوق سطح . .

ـ كلا . . أن المبلغ يكفى للغذاء والسجاير والكساء . . أما المأوى فكيف أستأجر مسكنا وأنا أملك قصرا؟! . . لن أهجر الخرابة . .

ـ اكتب الالتماس فى أقرب فرصة وأرسله إلى الوزارة . .

ـ ولا داعى للعجلة ، دعنى أفكر ، قد أكتب الالتماس وقد أستشير محاميا ، ولا يبعد عن اصل الحياة بلا التماس ولا محام . . لا داعى للعجلة . .

ـ على أى حال فقد عرفت سبيلك . .

فقال بجدة :

ـ لا سبيل للتفاهم بيننا . . . فأنت ممن يخافون الحياة وأنا ممن يزدورنها ، وجميع ما ترتعد لمجرد تصوره قر عانيته . . جميع ما تسأل الله ألا يقع قد ذهبت إليه فوق قدمى . .

ـ عظيم جدا يا جعفر . .

ـ هل يعجبك كلامى ؟

ـ جدا . .

ـ أتود أن تسمع المزيد منه؟

ـ ثق من ذلك كل الثقة . .

ـ لقد قدمت لى عشاء فاخرا ، وستقدم لى مساعدات هامة فى الأيام الفادمة ، فضلا عن أننا أبناء حى واحد بنا إلى مقهى ودود بالباب الأخضر . .

وسرنا جنبا إلى جنب نحو الحى العتيق حتى اخترقنا القبو الأثر إلى الباب الأخضر ، وجلسنا ندخن البورى ونشرب القهوة على حين جرى الحديث فى سكون الليل الطويل . .

ـ ٣ ـ

هجعت عطفة الباب الأخضر تحت ستار الليل ، تعود فى تلك

الساعة أفواج من الشحاذين إلى أركانهم، ينطلق المجاذيب فى جنباتها، يفوح البخور من زواياها. لا غريب يطرقها ليلا إلا رواد مقهى ودود القلائل، وجمعيهم من مدخنى البورى، قال جعفر:

ـ دعنى أحدثك عن عهد الأسطورة . .

ـ إكنى أعنى ما أقول فلا تقاطعنى، لا توجد طفولة، ولكن يوجد حلم وأسطورة، عهد الحلم والأسطورة، وهو يفرض ذاته فى عذوبة فائقة، وربما زائفة، بسبب من معاناة الحاضر الأليمة عادة، وهو دوى ضخم فى وجدانى وعندما أحلله لا أجده شيئا، وهذا ما يؤكد طبيعته الأسطورية، حسبك أن تعرف أن قطبيه الأساسيين ـ أبى وأمى ـ لا أكاد أعرف عنهما شيئا ذا بال.

هل غادراك وأنت طفل؟

ـ لا أذكر أبى بتاتا، لا صورة له فى ذاكرتى ولم يخلف صورة فوتوغرافية لتذكرنى به، وقد فارق الدنيا قبل أن ينجب غيرى، ولا يوجد سوى موقف واحد يشير إليه إشارة غامضة، موقفه يوم الاحتفال بالمحمل وراء نافذة تطل على مرجوش، وأنا ممتط قفاه وأنظر من فوق منكبه إلى الجموع، وإلى رأس المحمل المذهب الذى يتبختر فى مستوى النافذة، موقف يدل على العطف والحنان أليس كذلك؟، والمحمل معلم من معالم الأسطورة أما الجموع فحقيقة من نوع خاص، بعثت فى نفسى ذات يوم فى مكتبى بميدان باب الخلق فهتفت فى وجه «سعد كبير» وقلت . .

قاطعته :

ـ نحن الآن فى الأسطورة فلا تجاوز حدودها !

ـ دعنى أتكلم بحرية فإنى أكره القيود !

ـ ولكن الحكاية ستذورها رياح الخواطر فأضل بين شذراتها !

قهقه قائلا :

ـ ألا تسمح لى بأن أعبث بالزمن كما عبث بى ؟ ! ، حسن ، لنعد إلى الأسطورة ، إلى الجن الماجن والجماد اللعوب والحقائق الطيفية والأحلام الحقيقية ، لنعد إلى الأسطورة ، قلت لك أننى لا أتذكر أبى ولكننى لا أنسى يد أمى .

ـ يد أمك ؟

ـ صبرا ، لقد مات أبى ، كيف ولم ؟ لا أدرى ، ولكنه مات فى ريعان الشباب كما علمت فيما بعد ، كنت فى الخامسة وربما دون ذلك ، حتى بيت مرجوش لا أتذكره ثمة حجرة يصعد إليها من الدهليز بسلم ذى درجتين ، وفراش مرتفع يرقى إليه بسلم خشبى يغرى باللعب ، ونار جيلة معزولة فوق صوان حتى لا تمتد يداى ، وقطط مدللة ، وجندرة ، وكرار مظلم تسكنه أنواع شتى من الجن ، وفأر أسود ، ومبخرة ، وقلة مغروسة فى صينية يسبح اليمون فى مائها ، وكانون وزكائب فحم ، ودجاج وديك مزهو فخور ، مات أبى لا أدرى كيف ولا أدرى ماذا كان يعمل ، ولكن بوسعى أحدثك عن الموت نفسه فإنى به خبير ، أنى من صناعه ، حق لى يوما أن أقول إننى واهب الحياة ، فعندما يشتعل الغضب وتلتهم

ألسنته كلمات السماء تفتح أبواب غامضة تسلل منها الشياطين، بل يجيء ابليس نفسه فى موكبه النارى يحف به القضاة ورجال الشرطة والسجانون، عند ذاك يغير جعفر الراوى اسمه ولقبه جلده. .

قلت برجاء:

ـ سامحك الله، أنك خانق الإلهام، تود أن تعرف كيف مات أبى كما لو كان أباك أنت، ماذا أعرف عن ذلك؟ . ، استيقظ فى الظلم فأنتبه إلى أن أمى تحملنى بين ذراعيها وتغادر بيت إلى بيت جاروتنا، ولا شك أن النوم غلبنى، ولما أستيقظ فى الصباح أجدنى فى مكان غريب فأبكى، تجيء الجارة بطعام فأسال عن أمى.

ـ أمك فى مشوار وستجيء فى الحال. . تناول طعامك.

وأتناول الطعام رغم ضيقى، وأسمع الوقت صواتا، ولكن الصوات والزغاريد أصوات مألوفة فى حارتنا، وأرجع إلى بيتنا فى نفس اليوم ليلا أو فى اليوم التالى فألقى جوا غريبا وكئيبا يفشى سرا أليما لا أعرف كنهه ولكن تصيبنى منه وحشه وقلق مبهم ها هى أمى، ما أشد تغيرها، جلبابها أسود، وجهها مريض شاحب، نظرتها خابية وذابلة، فقد البيت مناخه النقى ومرحه الأصيل.

ـ ما لك يا أمه؟

ـ كل شيء طيب، العب. .

ـ إين أبى؟

ودارت وجهها عنى وهى تقول:

ــ سافر . . العب . . عندك السطح ولا تكثر من الأسئلة . .

أننى أعامل معاملة جديدة لا تخلو من جفاء وقلة اكتراث، أمى تهرب منى، تهرب بعينيها أن لم تهرب بجسمها كله، وهى تبكى من وراء ظهرى، أبى لا يعود من السفر، ثم أننى لست جاهلا كل الجهل بلغتنى أشياء عن الله . . الشيطان . . . الجن . . . الجنة والنار . . حتى الموت بلغتنى عنه أشياء منذرة بغير السرور، متى يعود أبى من سفره، ومتى يرجع وجه أمى إلى صفائه المعهود، وكم دام انتظارى القلق لأبى، ومتى أدركنى اليأس منه، وكيف أنسيته وشغلت عنه، وكيف واصلت حياتى بعد ذلك وكأن شيئا لم يكن؟ نسيت ذلك كله ولا سبيل إلى تذكره وتسجيله، أما يد أمى فلا يمكن أن تنسى . .

ــ ذكرت مرارا يد أمك؟

ـ تمسك بى أو أمسك بها ونسير معا فى الحوارى والأسواق . .

ـ للتسوق أو النزهة؟

كنت بدأت أنس إلى روعة المنتقدة وراء الأطلال والخرائب، وبدا هو سعيدا ممتنا للعشاء والبورى وظفرة بمستتمع بتابع ما يقول باهتمام، قال:

ـ إحيانا أحاول أن أتذكر صورة أمى فلا أعثر على شىء ذى

بال، ما طولها على سبيل المثال؟ كنت بطبيعة الحال أقصر منها جدا ودائما أنظر إلى فوق حين أحدثها ولكن ذلك لا يدل على شيء ولا يحدد طولها، ولا فكرة لى عن وزنها كذلك، ولا لون عينيها، ولا لونها تقسه، ثمة صورة عامة غير محددة الخطوط، واشارات ونبرات غير مسموعة، وعواطف جياشة، وابتسامات وضحكات وزجرات، أشبه بأطياف الأحلام، غير أننى أستطيع أن أقرر بأنها كانت جميلة، لولا جمالها لما حدثت المأساة، كما أننى أذكر قول جارتنا لمناسبة منسية «ولد يا جعفر يا ابن الست الجميلة»، ولكنها لم تبق فى الحياة كثيرا حتى تمكننى من حفظها فى قلبى من الدمار، يدها فقط التى بقيت معى، أحس حتى الساعة مسها وضغطها وشدها وانسيابها، وهى تمضى بى من مكان إلى مكان، خلال طرقات مسقوفة ومكشوفة، وتيارات من النساء والرجال والحمير والعربات، و أمام الدكاكين وفى الأضرخة والتكايا، وعند مجالس المجاذيب وقراء الغيب، وباعة الحلوى واللعب، وتقودنى فى جلبابى وعلى رأسى طاقية مزركشبة تتدلى من مقدمها تعويذة كالحلية، وكانت أحاديثها متنوعة ذات صيغ شعرية تخاطب بها الكائنات جميعا كلا بلغته الخاصة به، فهى تخاطب الله فى سمائه، وتخاطب الأنبياء والملائكة، كما تخاطب الأولياء فى أضرختهم، حتى الجن والطير والجماد والموتى، وأخيرا ذلك الحديث المتقطع بالتنهدات الذى تناجى به الخط الأسود، كانت الدنيا حية واعية تتلقى الكلام وترده، وتشارك بإرادتها الخفية فى حياتنا اليومية، لا فرق فى ذلك بين ملاك وباب صريخ، بين الهدهد وبوابات القاهرة

القديمة، حتى الجن كانت تلين لكلماتها السحرية، وبفضل ذلك نجوت من مهالك لا حصر لها . .

ولما وجدته جادا لم أتمالك من الضحك فسألنى دون أن يخرج من جديته :

ـ علام تضحك :

فقلت بلهجة المعتذر :

ـ إنك تروى حلما ولكنك الأن تعرف تفسيره وتأويله . .

فقال بكبرياء :

ـ لا تتخيل أنك تعرف من الدنيا نصف ما عرفت .

ـ هكذا؟

ـ أنى بحر ولا فخر!

ـ ولكنك لاتفرق بين الحقيقة والخرافة .

ـ لا توجد خرافات وحقائق ولكن توجد أنواع من الحقائق تختلف باختلافات أطوار العمر وبنوعية الجهاز الذى ندركه به، فالأساطير حقائق مثل حقائق الطبيعية والرياضة والتاريخ، ولكل جهازه الروحى، وإليك مثالا حيا، فقد أخدتنى أمى ذات يوم لزيارة قبر أبى بين قبور الفقراء المكشوفة فى العراء، ثم راحت تناجيه قائلة : «زوجتك وابنك يحييانك ويسألان الله لك الرحمة والغفران يا حب الناس وأكرمهم، أنى أشكو إليك وحدتى وهمى فأدع لنا ربك يا حبيب» . وسرعان ما زلصقت أذنى بجدار القبر

فسمعت تنهدهة وكلاما أخبرت به أمى فقالت لى : «مبارك أنت حتى يوم الدين» . .

فسألته بأشفاق :

ـ ماذا قال لك أبوك؟

ـ أنك غير مؤهل لتصديقى فلن أجيبك!

ساورنى شعور بأنه يغطى ماء الدعابة بسطح من الجدية الخشنة أو أنه يريد الأحاطة أسطورته بجو أسطورى يتوافق معها ليرضى حنين قلبه، فتمتمت مذعنا :

ـ فوق كل ذى علم عليم .

ـ كانت دنيانا دنيا حية، تنبض بالرغبات والعواطف والأحلام، فيها الجد والمزاح، فيها الفرح والأسى، ينتظمهم جميعا ـ الأنس والجن والحيوان والجماد ـ لحن التفاهم والتعامل . .

ـ ولكنك تدرك ذلك كله؟

ـ كل الإدراك . بشغف واصرار . .

ـ ألم يطوقك الخوف؟

ـ أحيانا ولكنى سرعان ما ملكت أسلحة الدفاع والهجوم وصرت سيد الدنيا، كنت ذات مساء ألاعب الليمون فى صينية القلل على حافة النافذة فما أدرى ألا ورأس كائن يتطلع إلى من موضع فى مستوى النافذة من الطريق، عيناه تضيئان فى الظلام

وقدماه منغرستان فى الأرض ، فتراجعت مضطربا حتى استلقيت على ظهرى فوق أرض الحجرة ومزقت صرختى سكون الليل ، وقد علمت فيما بعد أن لقاء الانسى بالجنى لا يجوز أن يتم على ذلك النحر ، وقالت لى أمى أنه أن لى أن أحفظ الصمدية ، أما عفاريت بيتنا ـ وهم يقيمون فى الكرار ـ فكانوا يميلون بطبعهم للدعابه ، ولا يصدر عنهم أذى حقيقى ، يخلطون المش بالعسل ، أو يخفون السمن لاستعمالهم الشخصى ، أو يخفون السمن لاستعمالهم الشخصى ، أو يطفئون المصباح بيد الماشى ليلا ، وأسوأ مزاحهم تحويل الأحلام إلى كوابيس . .

ـ هل تستطيع أن تعطينى فكرة عن صورة العفريت؟

ـ كلا ، أنك غير مؤهل للتصديق ، ثم أن الجن تختفى من حياة الفرد مع اختفاء عهد الأسطورة وسرعان ما ينساها تماما ، بل أنه ينكرها ، رغم أنه يلقاها كل يوم فى صور جديدة من البشر ، وفى الحال الأخيرة يصدر عنها شر حقيقى وأذى كبير ، ولكنك تصر على أن الجن خرافة ليس ألا ، ومن ناحية أخرى فقد شاء لى القدر أن أى النور الكبارك فى ليلة القدر وأنا جالس على حجر أمى أتطلع إلى السماء ! . . فتحت نافذة وأطل منها نور باهر طمس أضواء النجوم . . فقلت ضاحكا :

ـ يقال أنه لا يرى ليلة القدر إلا من كتبت له السعادة من البشر .

فقهقة طويلا ثم قال :

ـ يبدو أنك غلبتنى هذه المرة ، ولكن إلى حين فقط ، حقا أنى

أبلغ مثال للبؤس ولكن العبرة بالخرايتم، والخاتمة ما زالت مجهولة. وقد أجد الجواب فى الجنة، ولى مع الجنة تاريخ طويل، كانت أمى تحدثنى عنها حديث الخبير، فأحببتها حبا لا مزيد عليه، خلبتنى وسلبت لبى فصارت حلمى الباهر، جنة السحرحيث يرى الله بالعين ويسمع بالأذن ويخاطب باللسان، فى حديقة الأنهار والألحان والشباب الدائم، ولكن لنراجع إلى حديث أمى، كيف كانت تعيش بعد وفاة أبى؟. خطر لى هذا السؤال فيما بعد ولم يسعفنى الجواب، كنا نغادر بيتنا كل يوم، نزور أصرخة ودكاكين ونبتاع ما يلزمنا ثم نرجع إلى بيتنا لتنهمك هى فى الاجبات المنزلة وأوى أنا إلى جنتى الأرضية بين القطط والدجاج، وقد تزورنا جارتنا، وكان لا أهل لى ولا أهل لها، أكانت تملك مالا ؟. . حتى اليوم لم أعرف وجهة الحقيقة فى ذلك، وقد ظلت ترتدى السواد عقب وفاة أبى، وكانت تبكى أحيانا إذا خلت إلى نفسها وأكثر من مرة ضبطها وهى تبكى، وأدركت سر العلاقة بين البكاء وبين اختفاء أبى، وسألتها:

ـ ألست تقولين أن أبى يقيم بين يدى الله؟

فأجابت بالإيجاب وفسألتها:

ـ إذن فلماذا تبكين؟

فقالت:

ـ إنه لخطأ يا جعفر ولكن الدموع تفيض رغم إرادة الإنسان.

لم يقعدنى ذلك عن مغامراتى اليومية فأمضى فى البهجة، أجمع البيض، أطارد الفئران، أتحدى العفاريت، ولبثت المغامرة

السعيدة عاما عقب وفاة أبى، وأخذت تجذبنى حكايات الرباب فى المقهى تحت النافذة، تابعتها باهتمام على قدر استيعابى لها، وشاهدت معارك تنشب بسبب التعصب لأبطالها، ومن نفس النافذة شاهدت معارك معارك القنوات فى الزفال، فأعجبت بالقنوات كأعجابى بالجن، وحلمت طويلا بأن أكون فتوة أن أعجزنى أن أكون عفريتا. .

ـ سألته:

ـ ألم يتحقق لك حلم من أحلام الطفولة؟

ـ لا تسخر منى وانتظر، أريد أن أحدثك عن الحب فى عهد الأسطورة.

ـ ولكن عهد الأسطورة ليس بعهد الحب. .

ـ ولكن الحب بدأ عندى من سن السادسة، كنت أحب الغوص وسط البنات فى ليالى رمضان، والعلقة الوحيدة الجادة التى أصابتنى من يد أمى كانت بسبب الحب، إذا غويت بنتا تماثلنى فى السن فأخذتها إلى سحارة وأنزلت الغطاء فرفعت وجهى فزعا فرأيت وجه أمى يحملق فى وضفيرتها تسقط فوق رأسى، وعلى فكرة كانت ضفيرتها طويلة جدا وكنت ألعب بها ما وجدت إلى ذلك سبيلا فأحلها وأعقدها وأدورها كحبل، لا شك أن أمى كانت جميلة، ولولا جمالها ما نشأت المأساة أصلا.

ـ أعطنى فكرة عن حب الطفولة. .

وهو يضحك:

ـ إنه يبدو عبثا ضائعا ولكنى لا أذكر أنه صخب بالانفعالات حادة قاربت السكر . .

ــ ذاك شذوذ!

ـ لست توبويا على أى حال، وبوسعى أن أوكد لك أن الجنس لم يكن عنصرا طاغيا فى حياتى ولكنه لعب دورا حاسما فى حينه، أما فى الطفولة فقد أسهم فى نطاقة الضيق فى تأليف الأسطورة، غير أن الأسطورة تعرضت لضربة قاضية لم تكن فى الحسبان، فقد استيقظت ذات صباح وحدى دون أن توقظنى أمى كالعادة. أدركت أننى استيقظت وحدى عندما وجدتها مستغرقة فى النوم، راقدة على وجهها، وسرنى جدا أن أوقظها ولو مرة فى حياتى الصغيرة، قربت فمى فى أذنها وناديتها، مرة ومرة وهى لا تستجيب، حركتها بلطف مكررا النداء، ارتفع صوتى واشتد تحريكى لها ولا مجيب، وأصررت على إيقاظها، وتماديت فى اصرارى حتى ملأ صوتى الحجرة بلا أدنى نتيجة، ويئست تماما فانزلقت من الفراش وغادرت الحجرة، وتناولت من فوق الكنصول رمانة وصعدت إلى السطح وأنا أقشرها وأقضم حباتها الكهرمانية ثم اتفل حثالتها للدجاج، ورأيت جارتنا فجرنا الحديث إلى الحال التى تركت عليها أمى، وجعلت تحقق معى ثم أمرتنى أن أفتح الباب لها، وهروت إلى أمى وانكبت فوقها وأنا واقف عند الباب، وما لبثت أن ضربت صدرها بيدها وهتفت «يا خبر أسود يا أم جعفر»، ثم أقبلت نحوى فرفعتنى إلى صدرها ومضت بى إلى مسكنها، وانقبض قلبى لذلك التصرف، وتذكرت به تصرفا

مشابها يوم اختفى أبى إلى الأبد، ومضيت أصرخ «أمى . . أريد أمى . . »، وقضيت فى بيت جارتنا يومين كان أسوأ أيام عهد الأسطورة، وفى مساء اليوم الثانى طيبت الجارة خاطرى وقالت لى :

ـ لا تحزن يا جعفر فربك رحمن رحيم .

فقلت بائسا :

ـ أنا فاهم، أمى ذهبت إلى أبى . .

فدمعت عينا المرأة وتمتمت :

ـ ربنا معك، هو الأب والأم، هو كل شىء

وقال زوجها وكان يدلك أسنانه بمسواك :

ـ يجب عمل شىء، ولو باللجوء للحكومة . . فقالت المرأة :

ـ حتى الحجر يلين !

ومضت أيام وأنا أعيش ضائعا ذاهلا حتى أقبلت على الجارة تقول متهللة :

ـ يا حبيبى، أبشر، أمر ربنا بالرحمة، ستذهب إلى جدك !

لم أفهم شيئا .

كنت أسمع الكلمة لأول مرة .

ـ ٤ ـ

سألته بدهشة :

ـ لأول مرة؟

ـ لأول مرة .

ـ لم يجر له ذكر فى حياة أمك؟

ـ مطلقا، علما بأنه فى نفس الحى يقيم . .

ـ ولم أخفت أمك عنك أمره؟

ـ ربما لحقنها عليه، على أى حال أفهمتنى جارتنا أنه جدى، أنه أبو أبى، ولم يكن البيت بعيدا عن مرجوش، ولا كان فطالما سرت تحت سورة العالى ونحن ـ وأنا وأمى ـ فى طريقنا إلى الحسين، وأذكر أننى سألتها مرة عن هوية بداية السور العالى الذى يقوم أمام قبو بيت القاضى كالجبل فقالت لى بعجلة : «أنه السجن حيث يقضى المجرمون أعمارهم فى الظلام»، ولم يكن معزولا عما حوله، ففى الأحياء الشعبية تتلاصق بيوت الأغنياء والفقراء، ولم يكن يظهر من البيت ذاته شىء ولا من حديقته، فقط سوره المطل على البيت المال، وهو سورى حجرى يمتد طولا وارتفاعا وكأنه حقيقة سور سجن أو جدار قلعة أما بابه فيفتح على عطفة جانبية، ولما اجتزنا، ولما اجتزنا بوابته تم أول لقاء بينى وبين حديقته فلم يكن لى عهد قبل ذلك بالحدائق، ولا رايت من عالم النيات ألا

شجرة بلح بميدان بيت القاضى وشجيرة صبار بالقرافة، اقتحم أذنى تغريد البلابل وزقزقة العصافير ورأيت الأغصان محملة متوابثة بأفرادها الصغيرة الملونة، كما رأيت أسرابا من الحمام تحوم حول برج قائم وراء تكعيبة العنب، يطل على جدول ماء يشق الحديقة بالعرض يقف فيه بساتنى مغروسا حتى ثلث ساقه وبيده مقطف، أما أنفى فقد فغمته أخلاط من روائح الجنة حتى أثملته، وقد ذهلت حتى أوشكت أن أصرخ من الأعماق، وسرت فى ممشى تتجاذبنى على الصفين ألوان الأزهار والورود فى طريقى إلى السلاملك، وشد جارى على يدى وهمس فى أذنى مشجعا :

ـ هذا هو بيتك الجديد يا جعفر . .

كنت فى حيرة شاملة، وكان جدى يجلس على أريكة ذات مسند عال مطعم بالأرابيسك تتوسط السلاملك، والظاهر أن جارى أنهى حديثا قصيرا مع جدى ثم قبل يده وذهب، فوجدت نفسى وحدا تحت بصره، لما أفق من سحر العصافير والأزهار والجدول، وفى أعماق قلبى أسى لم تهن نواجذه، أنه لم يجلس متربعا فى جلبات أبيض فضفاض متلفعا بشملة مزركشة مغطى الرأس بطاقية بيضاء، طويل الوجه نحيله، قمحى اللون ذو نظرة هادئة مستقرة، جبهته عالمية بصورة بارزة وأنفه طويل شامخ، أما لحيته فبيضاء مسدلة على الرقبة وتلامس أعلى الصدر، تبادلنا نظرة فلم أقرا فى عينيه ما يخيف وتبدى لى على قمة عمر طويل وأية فى النبل والوقار ومالكا جديرا بالحديقة الفاتنة .

وقفت غير بعيد وغير قريب فى جلبابى المقلم وطاقيتى المزركشة حاملة التعريذة أنتعل مركوبا ملونا وأحمل تحت ابطى لفافة تحوى ثيابى القليلة .

أطال إلى النظر حتى اجتاحتنى رغبة الفرار وكأنما قرأ فى صدرى فابتسم ، وأشار إلى بالإقتراب .

قلت بحرارة :

ـ أريد أن أرجع إلى أمى .

مد لى يده فاقتربت مادا يدى ، تصافحنا ، تملكتنى رعشة بكاء ولكننى تمالكت نفسى قلم أبك ، وسرى إلى جسدى من ملمسه دفء ، قال برقة :

ـ أهلا بك .

أجلسنى إلى جانبه وقال .

ـ أنت فى بيتكو هل أعجبتك الحديقة؟

فأحنيت رأسى بالإيجاب :

ـ تكلم ، أنى أحب الكلمات .

فغمغت :

ـ نعم .

ـ أتعرف أن أكون؟

ـ جدى .

ـ ما معنى ذلك؟

ـ أبو أبى . .

ـ تصدق ذلك؟

ـ نعم .

ـ هل تتذكر أباك؟

ـ كان يحملنى لأرى المحمل ولكى أتذكر زمنى . . وأجهشت فى البكاء فربت على ظهرى ثم سأل :

ـ ماذا تذكر عن أبيك أيضا؟

ـ زرت قبره .

فحنى وجهة عنى قليلا ثم سأل :

ـ ما أسمك؟

ـ جعفر .

ـ ثم ماذا؟

ـ جعفر إبراهيم . .

ـ ثم ماذا؟

ـ جعفر إبراهيم!